



أنا من جيل فتح عينيه على الدنيا في وقت سادت فيه "نظريّة المؤامرة"، فكان شغلي الشاغل تفسير كل ما ينزل بال المسلمين من كوارث ومصائب بهذه النظريّة، والبحث عن كتب المؤامرات وقراءتها، من نوع "أحجار على رقعة الشطرنج" و"حكومة العالم الخفية" و"بروتوكولات حكماء صهيون".

لكن ذلك الجيل بدأ يضيق ذرعاً بإسناد كل مصيبة تصيبنا إلى أولئك الأعداء الأخفياء وبدأ يبحث عن أسباب أكثر وضوحاً وخيراً فعلاً؛ ذلك لأن الانسياق المبالغ فيه وراء تلك الأفكار أورث الأمة شعوراً بالعجز، وبلغ الإحباط بالناس غاية وهم يتصورون أنهم يواجهون عدواً لا قبَل لهم به ولا طاقة لهم بحربه، حتى انتهيوا إلى السلبية والاستسلام والفشل المُشين.

كان التخلص من تلك الأفكار وسيطرتها على العقول أمراً إيجابياً، ولكن ردة الفعل كانت قوية (كما يحصل دائماً) فانتقل الناس إلى الجانب الآخر، وباتوا لا يتوقعون أيّ فعل لعدونا في الخفاء ولا يصدقون بأن أي شر في حياتنا يمكن أن ينشأ من مؤامرات ينسجها أعداؤنا ونحن عنها غافلون. والناس من طبائعهم الانتقال من أحد طرفي المسألة إلى آخر؛ كم شاباً كان موغلاً في الحرام ثم تاب فتصوّف أو تدعّوش، وكم واحداً انتقل من التزمت والتکفير إلى الكفر والانحلال والضلال؛ مثل هؤلاء كثيرون.

كنت أنا من الذين ثاروا على "نظيرية المؤامرة" ونبذوها رافضين الاعتراف بأن ما نحن فيه من هوان سببه مؤامرات أعدائنا، وصارت هذه النظيرية عندي محل تهم و استهزاء بعدها كانت المرجع الذي يفسّر أكثر الحوادث المؤلمة التي تحدث في عالمنا الإسلامي.

لـكن الأرض مـكـوـرـةـ! اـكـتـشـفـتـ ذلك بـعـثـةـ مـاجـلـانـ عـنـدـماـ عـادـتـ إـلـىـ إـسـبـانـيـاـ وـاحـدـةـ منـ السـفـنـ الـخـمـسـ الـتـيـ اـنـطـلـقـ بـهـاـ فـيـ رـحـلـتـهـ الـاـسـتـكـشـافـيـةـ الشـهـرـيـةـ،ـ بـعـدـمـاـ مـاتـ هـوـ وـتـحـطـمـتـ أـرـبـعـ مـنـ السـفـنـ،ـ فـأـثـبـتـتـ تـلـكـ الـرـحـلـةـ الـحـقـيـقـةـ الـتـيـ نـازـعـ فـيـهـاـ النـاسـ مـنـ قـبـلـ قـرـونـاـ طـوـلـةـ.

وبطريقة مماثلة وجدت أنني درت دورة كاملة فعدت من حيث بدأت، لكن دورتي استغرقت بضع عشرة سنة وليس ثلاث سنوات كدورة سفينة ماحلان!

بعد سنوات طويلة إلى "نظير المؤامرة" مرة أخرى، ولكن ليس عودةً من يقول إن لعدونا من القدرة ما لا يكون إلا لله، كما ظن بعض البُلُه من الناس، تعالى الله علواً كبيراً، بل من يقول إن لهذا العدو من الدهاء ما لا يكاد يمتلك مثله إبليس، وهو عدو عنيد يمتلك المال والقوة بلا حساب والشر والدهاء بلا حدود، وقد جهر بحربه على الإسلام والمسلمين فلا يحتاج إثباتٍ عدائه لنا إلى شواهد، وحربه معنا حربٌ عقيدة ومصلحة ونفوذ ومال، فكيف يتصور العقل السليم أن هذا العدو لا يضع الخطط في السر وأنه لا يتخذ كل سبب ويلجأ إلى كل وسيلة ليكسب الحرب؟

ألا نكون في نبذنا نظرية المؤامرة النبذ كله مغفلين كما كنا - حين فسرنا بها كل حديث في حياتنا - عاجزين؟

أين الوسط الذي هو خير الأمور فنعرف بأنّ وراء الستار قوةً شريرةً عظيمةً تخطط وتفكر وتدير وتکيد لهذه الأمة، من غير أن ننجرف مع هذه الفكرة حتى نعزو كل مصيبة تصيبنا (وکثيرٌ مما يصيّبنا من كسب أيدينا) إلى مؤامرة على الأمة وأحرار الأمة الشفاء؟

أما أنا فهذا هو مذهبياليوم؛ أنا على يقين أن ما نراه من عدوان أعدائنا علينا ليس سوى رأس جبل الجليد، وتحت الرأس الجبل كله: المكر والتخطيط والإعداد وتنفيذ المؤامرات في الخفاء. إنها عقول كثيرة جداً شريرة جداً ثرية جداً نشيطة جداً، ونحن غافل عن نائمهن.

حين نغدو على يقين من أن "المؤامرة" كبيرة لهذه الدرجة فليس المطلوب أن نشعر بالعجز ونسقط ضحية الإحباط، بل المطلوب أن نفتح الأعين والاذان لاستشعار المؤامرة قبل وقوعها، وأن نستفزّ الهم ونستثمر القدرات والطاقات التي تملكها الأمة، فنضع لمواجحة المؤامرات أفضلاً، الخطط ونذّ علينا بأنذك الأسلوب.

الخلاصة: إن أعداءنا يتآمرون علينا بالليل والنهار؛ إنهم يستيقظون ونحن نائمون، ويعملون ونحن قاعدون، ويخططون ونحن غافلون... بل إننا كثيراً ما نكون نحن الأدوات التي ينفذون بها هذه المؤامرات ونحن جاهلون! وقد آن الأوان لكي نستيقظ بعد نوم، ونعمل بعد قعود، ونعي بعد غفلة، ومهما كان عذرنا فلا أقل من أن نمتنع من أن تكون أدوات ينفذون بها المؤامرات.

